منطق اللغـــة

للأستاذ أحمد أمين

قال صديقي : ألا تنظر إلى هذه الظاهرة الغريبة ؟ أنا في مجلس يتجادل أحيانا فيما يُعرض عليه باللغـــة العربية ، وأحيانا باللغة الانجليزية ، فاذا تجادل باللغة الانجليزية فالحجة تُقْرَع بالحجة في إيجاز ، وداخل حدود معينة . قلّ أن يكون هناك استطراد . وقلّ أن يكون لعب بالألفاظ ، وقلّ أن يكون خروج عن الموضوع ، وقلّ أن يكرّر المجادل نفسه فيما يقول . فاما أن يأتي بحجة جديدة وأفكار جديدة ، وإما أن يسكت . وما هي إلا هنيهة حتى يؤخذ الرأي ، ويفصل في الأمر . وإذا تجادلنا باللغة العربية فهناك يطول الجدل ، ويكثر الحديث ، وكثيراً ما تقرع الحجة لا بأختها ، ولكن بنت عمها ، وكثيراً ما يستطرد من موضوع إلى موضوع لا قل مناسبة أو بدونها ، وبعد طويل من الزمان يعودون إلى ما بدءوا فيه ، وتثار مسائل كثيرة لا يفصل في واحدة منها ، ويقول المجادل الآن ماقال من قبل ، فيرد عليه صاحبه بمثل ما رد من قبل ، وتتشعب الآراء حتى يصعب حصرها . وحتى ينسى أخيراً ما بدىء به أولا ، ثم يؤخـــذ الرأي وقد مل المتجادلون ، وسئموا الجدل ، وودوا أن يفصل في الأمر على أي شكل . ولذلك قد يكون الرأي يؤخذ أخيرا شراً من الرأي يؤخذ أولا ، بل قد يكون الرأي الذي قرر لا علاقة له بالمسألة التي أثيرت من قبل .

نعم يا صديقي . أنا أعتقد أن لكل لغة منطقا يخالف منطق اللغة الأخرى ، وأن المسألة لا ترجع الى عقليـــة المتجادلين وحدها ، فقد يتجادل جماعة — كما ذكرت — باللغة الأجنبية ، ثم هم أنفسهم يتجادلون باللغة العربية فيكونون في الأولى أكثر توفيقا ، وليس من الصحيح أن ترجع هذا إلى ضعفهم في اللغة الاجنبية . وقوتهم في اللغة العربية ، فهذا القول ينطبق تماما على من أجادوا اللغتين ، وحذقوا اللسانين

وتعليل ذلك قد يبدو غريبا ، فان أول ما يتبادر الى الذهن أن اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عن المعاني ، وليست إلا مظهراً من مظاهر العقلية ، فاذا كان التفكير صحيحا سليما كان التعبير عنه كذلك مادام صاحبه يجيد التعبير ويتقن اللغة ، واذا كان التفكير فاسدا كان التعبير عنه فاسدا متى وفق صاحبه للتعبير عما يريد ، ولكن يظهر لي أن المسألة أعمق من ذلك وأن هناك تفاعلا بين اللغة والتفكير ، فاللغة المنظمة تعمل في تنظيم الفكر ، والفكر المنظم يعمل في تنظيم اللغة — وكذلك العكس — وان المتكلم إذا تحدث باللغة الانجليزية أو الفرنسية خضع لنطقها وطرق تفكيرها كما يخضع لاختيار كلماتها ، واختيار أساليبها وكيفية معالجة الموضوع ، فيؤثر ذلك كله في تفكيره وجدله وحججه ، وعلى الجملة فهو يحاول ان يكون انجليزيا أو فرنسيا في تفكيره كما هو انجليزي أو فرنسي في لغته — يشعر هذا تمام الشعور من أجادوا لغتين أو أكثر ، فهم إذا تكلموا بلغة أجنبية راقية شعروا مثلا — بأن هناك غرضا محدوداً واضحا يرمون إليه في حديثهم وحججهم ، وأنهم يضعون لذلك خططا ثابتة معينة تشبه خطط الحرب يضعها قادتها لتسلم كل خطوة الى التي تليها ، أو كالخطط التي يضعها لاعب الشطرنج الماهر إذا لعب لعبة علم ماذا يريد منها وما هي الألعاب التي تترتب عليها فتنتج الفوز ، وهو هو اذا تكلم باللغة العربية لم يتضح القصد له وضوحه باللغة الاجنبية ، ولم يرتب حججه ذلك الترتيب الذي يرتبه باللغة الاجنبية — ومن أوضح الامثلة على ذلك أن مجيد اللغتين كثيرا ما يذكر باللغة الاجنبية ، ويترجم تفكيره الى اللغة العربية ، وقلما يعكس ، مع أن اللغة العربية هي لغته الأصلية ، وهي التي نشأ عليها وتربى في أحضانها ، فكان معقولا أن تكون هي لغة تفكيره

فاذا عبر بلغة أجنبية نقل تفكيره اليها ـ وليس من الهين تعليل هذه الظاهرة ، ولكن يمكن أن يقال ان السبب فى ذلك أن اللغات الأجنبية الراقية قد استكملت أدواتها ، من حيث الألفاظ الموضوعة لكل آلة مخترعة ولكل معنى مستكشف ، كما استكملت أدواتها من حيث أساليب التفكير وصياغة المعانى صياغات مختلفة . أدخل فى الذهن ، وأقبل للعقل ، وأجمل فى الذوق ، وأن اللغة العربية أبطأت فى تاريخها الحديث ولم تسرع فى السير ، برغم مايقوله الدعاة من أنها أغنى اللغات وأجمل اللغات ، ثم يلامون على ذلك من غير أن يعملوا على تكميل نقصها ، ومعالجة ضعفها ، وكيف يعمل على معالجة الضعف من لم يشعر بألم المرض ؟ وكيف يعمل على تكميل النقص من لم يشعر بنقص؟ ـ لهذا كان فكر المفكر اذا أجاد اللغتين يتبع ـ من غير اختيار ـ أرحبها صدرا وأغزرها مادة وتعبيرا

وسبب آخر : وهو أن الأمم الأجنبية الراقية قد مرنت طويلا على المجالس النيابية والمناظرات المدرسية والجامعية ، وتكونت لها مع طول الزمن تقاليد معروفة مألوفة غير مكتوبة ، وأثرت فى جدلهم ومناظراتهم ومجالسهم أثرا كبيرا ، كما أثرت فى طرق تفكيرهم ولغتهم التى يتبعونها فى الجدل والمناظرة

ثم — مما لا شك فيه — أن هناك ارتباطا قويا بين اللغة والخلق ، فلست تجد فى لغة أجنبية من ألفاظ الملق وعباراته ما تجده فى اللغة العربية مما أدخله عليهـــا الفرس والأتراك ، ولا تجد من عبارات الخشوع التى تدل على الذل والخضوع ما تجد فى لغتنا العربية الحديثة كانت اللغة ديمقراطية شريفة نبيلة يوم كانت اللغة العربية لغة العرب الديمقراطيين الذين لا يفرقون كثيرا بين مخاطبة الأمير ومخاطبة بعضهم بعضا ، ثم أصبحت لغة العبيد يوم تسرب الى أهلها الذل والعبودية — لقد جلست أول أمس الى رجل يحدث « باشا » فكان ما أحصيت فى حديثه من « سعادة الباشا » أكثر من كلماته فى الموضوع — ومالى أذهب بعيدا — ومدلول الكلمة فى اللغة العربية أصبح غير مدلوله فى اللغة الأجنبية ، فاذا قال الألمانى أو الانجليزى « نعم أفعل » لم تدل على نفس المعنى الذى يقوله المتكلم باللغة العربية « نعم أفعل » « فنعم أفعل » العربية تدل على أنه قد يفعل وقد لا يفعل — والسامع إذا سمعها شك فى مدلولها « هل يفعل أو لا يفعل » فاحتاج الى أن يكرر عليه الطلب والرجاء . واحتاج المتكلم أن يعيد « نعم أفعل » وربما أقسم ، وربما استعمل كل صيغ التأكيد ، وهى بعد هذه الأيمان وهذه التأكيدات كلها لا يزال مدلولها أنه قد يفعل وقد لا يفعل — وهو اذا لم يفعل لم يخجل ، لأنه حقق وجها من وجوه الجملة — بل المتكلم الشرقى اذا قال « سأفعل » باللغة الأجنبية كانت أقوى فى نظره وأكثر التزاما مما إذا قالها باللغة العربية ، والمتكلم هو هو ، لم يتغير فى الكلمة إلا التعبير عنها باحدى اللغتين ، فاذا قالها العربى لأجنبى كان لها أشد احتراما وتنفيذا أشد رغبة وأقوى ارادة — أليس فى هذا كله دليل على شدة الارتباط بين اللغة والعقل واللغة والخلق ، وأن العقل واللغة والخلق كلها تتفاعل ، فاذا رقيت اللغة تبعها — نوعا ما — رقى العقل والخلق ، وإذا رقى العقل تبعه — نوعا ما — رقى اللغة والخلق ، وهكذا . ومن هذا تنتج معادلات جبرية معقدة الحل

إن الغيرة القومية والنهضة الشرقية تتطلبان أن يعنى قادتها بهذه المظاهر ، وأن يضعوا للأمة تعاليم جديدة فى اللغة والتفكير ، فهم مطالبون بكل الوسائل أن يميتوا ألفاظ الملق من اللغة العربية ويحيوا ألفاظ الأدب النبيل ، وأن يربطوا أشد الربط بين الالفاظ ومدلولاتها ، فلا يسمحوا أن يضيعوا مدلول الالفاظ كما هى ضائعة اليوم — وأن يضربوا الأمثال للناشئين فى الجدل والمناظرات فيعلموهم كيف تؤدى المعانى على وجوهها ، وكيف تلتزم حدود الجدل فلا تتخطى ، وكيف يرسم الغرض الذى يرمى اليه الباحث ، وكيف يختط السبيل اليه ، وكيف